

القرآن الكريم.. خير جليس وأطيب أنيس للصائمين



خير جليس وأطيب أنيس للإنسان في كلِّ زمان هو القرآن، وخير ما يتقرَّب به الصائم إلى ربِّه في رمضان هو القرآن؛ ولهذا يقبل المسلمون على قراءة القرآن في رمضان إقبالاً لم يعرف عنهم في بقية الشهور. فهناك علاقة حميمة بين القرآن وهذا الشهر بالذات ولو نطق رمضان لإعترف بفضل القرآن الكريم عليه. فقبل الإسلام لم تكن لرمضان فضيلة ولا منزلة تقدِّمُه على غيره من الشهور، فهو ليس من الأشهر الحرام التي عظمَها حرمتها وجعلها هدنة زمنية للسلام، ورمضان ليس من أشهر الحج المعلومات التي شرَّفها فجعلها مواقيت لأطيب المناسك. فرمضان قبل الإسلام كان مجرد شهر من الشهور التي قال الله فيها: (إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) (التوبة/ 36)، ومعنى هذا أنَّ رمضان لم تكن له منزلة الأشهر الحرم عند الله قبل الإسلام. فرجب كان أفضل منه وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم أفضل منه لأنَّها أربعة حرم، بل كان شوال أفضل منه لأنَّه من أشهر الحج المعلومات، ولم تظهر فضيلة رمضان إلا بعد أن اختاره الله ميقاتاً لنزول القرآن الكريم، وما جعله الله شهراً للصيام تشریفاً وتعظيماً له إلا لكونه ميقاتاً لإنبثاق أنوار الوحي على خاتم الأنبياء والمرسلين. فضيلة رمضان عندنا في أنَّه عيد ميلاد الوحي بكل المقاييس، شهر يذكر الأُمَّة بعيد ميلادها وباللحظة التي انبثق فيها نور الكتاب في أرض الله فطارد

الظلمات وأحيا الأموات، واتصلت الأرض بعد إنقطاع بأسباب السماوات..

ليتنا نستروح هذه المعاني ونحن نقرأ قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة/ 185)، ففي الآية إشارة واضحة إلى أن رمضان نال حظَّه من التكريم الإلهي لكونه طرفاً لأجل الأحداث وأعظمها وميقاتاً مباركاً لنزول القرآن هدىً للناس. وإنَّما تكون عظمة الزمن وقيمته بعظمة ما يؤرخ له من جلائل الأعمال؛ ولهذا فضَّلَ القرآن رمضان وكرَّمَه فجعله ميقاتاً لفريضة الصيام، كما كان ميقاتاً لوحى القرآن الأعظم إلى رسوله الأكرم (ص) وهذا ما يفهم من أمر القرآن جلَّ في علاه (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) (البقرة/ 186)، فجاء الأمر بصيام الشهر مرتباً على قوله سبحانه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) أي مَنْ شهد منكم رمضان فليصمه لأنَّه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، فنحن نصوم الزمن الذي فضَّلَه القرآن على سائر الشهور من أجل القرآن الكريم، وتنحني أصلابنا في رمضان بالذات على كتاب القرآن تفرُّباً إلى القرآن، واعترافاً بعظمة هذا الكتاب في حياة أُمَّة لولاه لصلَّات وأعزَّت عن ربِّها وتخلَّصت. وفي رمضان نحمل مصاحفنا في غدونا ورواحنا لتطمئن قلوبنا بذكر القرآن في عالم ترتعش فيه القلوب المسكونة بالهواجس والوساوس (ألا بذكر القرآن تطمئنُّ القلوبُ) (الرعد/ 28). من فضل القرآن علينا أنَّه يَسَّرَ القرآن للمؤمنين والمؤمنات قراءة واستماعاً وترتيلاً وحفظاً (ولقد يسَّرنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (القمر/ 17)، والكتاب الوحيد الذي يتعبَّد المسلم بتلاوته هو القرآن الكريم. فبينما مَنْ يقرؤه في رمضان تعبُّداً ولا يستطيع أن يتدبَّر معانيه فله بكل حرف يتلوه حسنات، وبينما مَنْ يتعبَّد بتلاوته ويتدبَّر معانيه وتلك رتبة أعلى ومنزلة أرقى لمن هيا القرآن له الأسباب. فالأُمَّة في حاجة إلى معاشة هذا الكتاب معاشة تأمُّل وتدبُّر وإعتبار، كما يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيِّه (ص): (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (ص/ 29). والحق جلَّ في علاه ينكر على الذين أغلقوا قلوبهم دون كتاب القرآن فلم يتدبَّروه ولم يحاولوا أن يفهموه، فيقول سبحانه: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد/ 24).

جميل أن نحصر على حفظ القرآن، وأجمل من هذا أن نفهم ونتدبَّر وفوق كل هذا أن نعمل بمقتضاه، وفي هذا يقول ابن مسعود: "كان الرجل مذنباً إذا تعلَّم عشر آيات لم يكن يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ". والرسول (ص) حدَّثنا عن فريق من الناس بلغوا الغاية في صلاتهم وصيامهم، ولكنه أنكر عليهم أنَّهُم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولهذا نقول للذين يحرصون على قراءة القرآن في رمضان أكثر من مرَّة رفقا بكتاب القرآن، فهو ليس كتاباً بشرياً يقرأ بأي شكل من الأشكال. وقد نصح رسول القرآن (ص) لمن سأله أن يقرأ القرآن مرَّة في الشهر، وهذا هو السر في تجزئة القرآن الكريم ثلاثين جزءاً

فالقراءة العاجلة تخلو غالباً من الخشوع والدقة. والقرآن الكريم لم ينزل في شهر أو شهرين ولا سنة أو سنتين، وإنّما نزل مفزاً في ثلاث وعشرين سنة ليقراءه النبي (ص) للناس على مهل ليستوعبوه ويفهموه، أو كما قال سبحانه: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء / 106).